



من أشهر كتب ابن قتيبة ، بل من خير الكتب التي تقدّم لقارئها مادةً طيبة تصقل ذهنه ، وتؤدّب نفسه ، وتزيّد من معارفه .

ويرى ابن قتيبة أنه لا تكتمل ثقافة الأديب مالم يُزوّد بقدر صالح « من المتخيّر من كلام البلغاء ، وقطّبي الشعراء ، وسيّر الملوك ، وآداب السلف ، يُروّض نفسه على الأخذ بما فيها من سنّة حسنة ، وسيرة قويمة ، وأدب كريم ، وخلق عظيم ، ويصل بها كلامه إذا حاور ، وبلاغته إذا كتب » .

ويصف كتابه فيقول عنه هو « لقاح عقول العلماء ، ونتاج أفكار الحكماء » .

ولابن قتيبة فضل على غيره من مؤلفي عصره فكتبه منظمة ، حسنة الترتيب ، بينما فضل الآخرين ينحصر في الاختيار والنقل والجمع .
من هنا كان اختيار « كتاب النساء » لابن قتيبة أمرًا مدروسًا بعناية ، روعى فيه حسن الاختيار ، وجمال العرض ، ووضوح الهدف ، وسمو الغاية !
إنه هو « الكتاب العاشر » من « عيون الأخبار » للشيخ الإمام أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المتوفى سنة ٢٧٦ هـ .

ويقول في مقدمته : إن زكاة العلم نشره ، وخير العلوم أنفعها ، وأنفعها أحملها مغبةً ، وأحملها مغبةً ما تُعلّم وعُلم لله ، وأريد به وجه الله تعالى .
ونحن نسأل الله تعالى - جلّ وعلا - أن يجعلنا بما علمنا عاملين ، وبأحسنه آخذين ، ولوجهه الكريم بما نستفيد ونُفيد ومريدين ، وبحسن بلائه عندنا عارفين ، وبشكره آناء الليل والنهار متمسكين . إنه أقرب المدعوين ، وأجود المسؤولين . ثم يحدثنا عن كتاب النساء فيقول :

والكتاب العاشر من « عيون الأخبار » هو « كتاب النساء » وفيه الأخبار عن اختلاف النساء في أخلاقهن وخلقهن ، وما يختار مِنْهُنَّ للنكاح ، وما يُكرّه ، واختلاف الرجال في ذلك ، والحسن والجمال ، والقبح والدماة والسواد ، والعاهات ، والعُجز والمشايخ ، والمهور وخطب النكاح ووصايا

الأولياء عند الهداء ، وسياسة النساء ومعاشرتهن ، والدخول بهن ، والجماع والمؤلّدات ، ومساوئهن خلا أخبار عشاق العرب ، فإنّي رأيت « كتاب الشعر والشعراء » أولى بها ، فلم أودع هذا الكتاب منها إلا شيئاً يسيراً ، وما جاء في ذلك من النوادر وأبيات الشعر المشاكلة لتلك الأخبار . وقد خففت وإن كنت أكثرت ، واختصرت وإن كنت أطلت ! ونحن نسأل الله أن يمحو ببعض بعضاً ، ويغفر بخير شراً ، ويجبر هزلاً ، ثم يعود علينا بعد ذلك بفضله ، ويتعمدنا بعفوه ، ويُعيدنا بعد طول الأمل فيه ، وحسن الظن به ، والرجاء له ، من الخيبة والحرمان !

ثم ينيه إلى قضية تشغل البال فيقول :
إن مثل هذا الكتاب مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين .

وإذا مرّ بك حديث فيه إفصاح بذكر عورة فلا يملنك الخشوع أو التخاشع على أن تُصعّر خدك ؛ فتعرض بوجهك ؛ فإن أسماء الأعضاء لا تؤثم ، وإنما المأثم في شتم الأعراض ، وقول الزور والكذب ، وأكل لحوم الناس بالغيب !

قال رسول الله ﷺ : « من تعرّى بعزاء الجاهلية فأعصّوه بهن أبيه ولا تكنوا »^(١).

ولم أترخص لك في إرسال اللسان بالرفث على أن تجعله هجيراً^(٢) في كل حال ، ودَيْدَنكَ في كل مقال ؛ بل الترخّص منى فيه عند حكاية تحكيها ، أو رواية ترويها ، تُفقصُها الكناية ، ويذهب بحلاوتها التعريض .

وأحببت أن تجرى في القليل من هذا على عادة السلف الصالح في إرسال النفس على السجّة ، والرغبة بها عن لبسة الرياء ، والتصنع ، ولا تستشعر أن القوم قارفوا وتنزهت ، وثلموا أديانهم وتورعت !

ومن ترك أخذ الحسن لموضعه أضاع الفرصة والفرص تمرّ السحاب .
عن ابن عباس قال : « خذوا الحكمة ممن سمعتموها منه » . وهذا يكون

(١) قال النجم : رواه أحمد والنسائي وابن حبان عن أبي بن كعب .

(٢) هجيراً : عادتك ودأبك ودَيْدَنكَ .

في مثل كتابنا لأنه آداب ومحاسن أقوام ، والحسن لا يلتبس بالقبيح ، ولا يخفى على من سمعه حيث كان !

لم يبق إلا أن نقدم لك المؤلف وإن كان لا يحتاج إلى تقديم !

■ مع المؤلف ■

يستمد الكتاب قيمته من مؤلفه ، وما هو عليه من علم ومعرفة ، وقد جرى العرف بأن يُقدّم المؤلف وأثره في مقدمة كلّ عمل يدور حول مؤلفاته ؛ لهذا كان واجباً علينا أن نقدم في إيجاز صورة لحياة ابن قتيبة :

إنه هو أبو محمد عبد الله بن مُسلم بن قتيبة الدينوري وُلِدَ سنة ٢١٣ هـ بالكوفة في رأى ، وبغداد في رأى آخر . وكانت نشأته ببغداد ، ففيها تلقى العلم ، وثقّفه في اللغة والدين ، وألّم بثقافة العصر في علم الكلام والفلسفة والمنطق عن شيوخ العصر .

ومكنته ثقافته وعلمه من عقد جلسات تدريس كان يروى فيها عن الكوفيين ، كما كان يروى عن البصريين ولما تغير الاتجاه السياسي في الدولة العباسية بعد خلافة المأمون دعى ابن قتيبة للقيام بمهام رسمية فصار قاضى دِينُور وإليها كانت نسبته وإن لم يكن من أهلها .

ودامت مدة قضائه بها من ٢٣٧ هـ إلى سنة ٢٥٦ هـ تقريباً ثم اعتزل ابن قتيبة الحياة الرسمية وعاد إلى حلقات التدريس سنة ٢٥٦ هـ تقريباً ببغداد حيث توفي سنة ٢٧٦ هـ .

□ مؤلفاته :

ولابن قتيبة تأليف عدة مختلفة المواضيع على أنه يمكن حصرها في اتجاهات أربعة إذا ما رجعنا إلى أغراضنا العامة ، ويمكن إدراج بعضها في اتجاه يعسر نعتة إذ هي بمثابة التصنيف العامة التي ترد عادة في الثقافة العامة منها :

(١) كتاب الأنواء ، (٢) و كتاب العرب ، (٣) و كتاب المعارف .

أما الصنف الثاني فهو يجمع تصنيف ذات صبغة أدبية بمعنى الأدب المتعارف عليه عندهم حينذاك .

ومنها : كتاب معاني الشعر ، والشعر والشعراء ، وعيون الأخبار ويلي هذا الصنف كتب اتسمت بالاتجاه الديني بل تبدو لها صلة بالفقه فيه وهي تشكل المجموعة الثالثة ومنها مشكل القرآن ، والمسائل والأجوبة ، وجامع الفقه ودلائل النبوة ، والرد على المشبهة ، والميسر والقداح ، وتأويل مختلف الحديث . على أن ابن قتيبة كان من أئمة اللغة في زمانه وبهذا نأتى إلى المجموعة الرابعة والأخيرة والتي طغت عليها الصبغة اللغوية وفيها نجد :

غريب القرآن ، ومعاني القرآن ، وأدب الكاتب ، وجامع النحو الكبير ، وجامع النحو الصغير ، ومشكل الحديث ، وإصلاح الغلط ، وغريب الحديث .

هذا هو المؤلف ... وإليك كتابه بعد أن وضعت له عناوين جانبية ، وعلقت عليه ، وخرجت أحاديثه ، وأوضحت من ألفاظه ما يحتاج إلى إيضاح راجياً أن يكون محققاً للغرض ، نافعاً لكل من أراد أن يحيا حياة سعيدة والله الموفق .

محمد إبراهيم الدسوقي

القاهرة في المحرم ١٤١٣ هـ
يوليو ١٩٩٢ م